الباب الثالث

الحما وزوج الأم

الفصل الأول

الأم الصغرى

- وما حيلته وقد أحبت الضابط وأحبها !
- الحقيقة بعد ستة شهور .

وكما كانت علاقة توفيق الحكيم بأولاده ، كانت علاقته بابنتى زوجته بل ربما كانت أفضل ، فقد عرفت « ناجا » (خمس سنوات) ، و « نيرمين » (سنتان) ، الحكيم فى هذه السن المبكرة ، وتفتح وعيها على الحياة ، وهما تقولان له : يا بابا .

فلم تشعرا يوما أنه زوج أمهما ، لأنه لم يشعرهما بذلك أبداً ، لدرجة أن زوجة إبنه إسماعيل لم تلحظ أى نوع من التفرقة بين أبناء الحكيم وأبناء زوجته ، إلى أن فوجئت بعد ستة شهور من زواجها ، بأن إسماعيل يقول لها ، إن « ناجا » و « نيرمين » ليستا ابنتى توفيق الحكيم ، ومع ذلك كان يشعرهما بأن لهما نفس حقوق زينب وإسماعيل ، حتى فى دعائه عندما كان يأوى إلى فراشه ليلا ، رافعاً يديه إلى الله راجيا :

اللهم احفظ أولادى الأربعة ، إلى درجة أن الحكيم كان يجعل « ناجا » تتحمل مسئوليتها كأخت كبرى ، نحو بقية إخوتها ، ويعتبرها قدوة لهم ، والمسئولة أمامه عنهم ، ويزودها بنصائحه وتوجيهاته نحوهم ، ولذلك إذا كان الحكيم قد انفعل مرتين أو ثلاثة ، فإن « ناجا » هى التى كانت تتلقى كلماته ومحاسبته أمام أى تقصير يراه قد حدث منها تجاه إخوتها ، الذين كانوا هم أيضاً يضعونها فى نفس القدر والمكانة ، فيوسطونها ، فيما لا يجرؤون على طلبه من الحكيم ، أو أمهم على السواء ، ولذلك كان يقول لها :

هو انت دايما مسحوبة من لسانك ؟!

ذلك بينما يكون إخوتها بعيدين أو قريبين ، يتسمعون لوم الحكيم وانفعالاته على أختهم ، ويتضاحكون فيما بينهم على أختهم ، وما هى فيه من وضع لا تحسد عليه ، وهم الذين غرروا بها ، ولكن هذا قدر الأخت

الكبيرة ، خاصة إذا كانت تتعامل مع رجل كالحكيم ، ليس ككل الآباء ، وليس ككل الأجداد ، وليس ككل أزواج الأم ، فهذه مسميات لا يعرفها ، لأن كل من فى بيته سواء ، يتصرف معهم بطبيعته وصفاته . ومن تلك الصفات التى أتعبت « ناجا » تردد الحكيم ، وعدم إعطائه الرد الحاسم والنهائى فى أى مشكلة تعرض عليه ، ولو قال رأياً فورياً فيها ، فعلى سامعه أن يتريث ولا يأخذ بوجهة نظره قبل مرور أربع وعشرين ساعة حتى يكون الحكيم قد فكر فى المشكلة وأدارها فى رأسه على وجوهها الأربعة ، بل قد تشغل تفكيره وهو نائم حتى يصل فيما يفكر فيه إلى قرار ، ولذا ينصح من يستشيره فى موضوع ما ، ألا يأخذ برأيه الأول ، وينتظر حتى اليوم التالى ، فبعض من حوله كان ينتظر ، وبعضهم متعجل فيأخذ برأيه هو دون انتظار لرأى الحكيم ، والبعض الآخر كان يأخذ بوجهة النظر الأولية للحكيم ، وكانت « ناجا » من هذا البعض الذى لم يكن قد فهم الحكيم بعد ، فكانت تسأله فى شىء ما وكان يقول لها افعلى كذا، هل فهمت؟، نعم يابابا فهمت، وعندما تفعل يكون قد فكر وصارت له وجهة نظر أخرى ، فيقول لها « لا ياستى ليس هذا ما كنت أريد منك أن تفعليه » ، فتندهش « ناجا » طبعاً وتقول « ألم تقل لى يا بابا إفعلى كذا وكذا .. » ، فيقول لها « أصلك لم تفهمينى الموضوع لأنك غير فاهمة .. لأنك « حمارة » ، فتتضايق « ناجا » وتأخذ جانباً ، فيقول لها الحكيم « لماذا تأخذى الأمور بحساسية ، أصلك معقدة » ، ولا تلبث أن تعود المياه إلى مجاريها ، وكلما كبرت ناجا وتعاملت مع الحكيم ، صارت تفهم شخصيته وطباعه وتتعامل معه على أساسها ، وهى قد استفادت من احتكاكها به ومن تحميله لها المسئولية ،ومن اعتباره لها الأم الصغرى لأخواتها باعتبارها أكبرهم ، ودربها على أن تكون ذات شخصية تتحمل مسئولياتها مبكراً ، وقد كان سعيداً بها عندما اكتشف

حبها للقراءة ، فكان يعطيها الكتب والمجلات لتقرأها ، وعندما يستعصي عليها فهم شيء تسأله عنه ويجيبها ، وذات مرة رأت باب حجرته مفتوحاً وهو أحياناً ما يفعل ذلك ، فلاحظته « ناجا » وهو يكلم نفسه فى حوار هامس وهو عادة ما يفعل ذلك ، فيدير الحوار بينه وبين نفسه حتى يستشعر سلاسة الكلمات وبساطة التعبيرات بين شخوص أبطال رواياته ثم يسجلها بعد ذلك على الورق ، ولم تكن « ناجا » الصغيرة تفهم ذلك أو تعيه ، فلم تر إلا بابا الحكيم وهو وحده فى حجرته يكلم نفسه ، فتملكها الخوف مما ترى وسارعت إلى أمها تخبرها باكتشافها المخيف الرهيب فى نظرها : يا ماما ، بابا بيكلم نفسه » ، فكانت الأم لا تستطيع إفهام ابنتها الصغيرة ، فتقول لها : « يبدو أنه يهيأ لك ذلك » .

وتقوم فى صمت لتغلق باب الحجرة على الحكيم .

* * *

ولأن « ناجا » لم تكن تعلم أيضاً أن الحكيم لا يحب لأحد أن يقترب من حجرته أو يغير موضع ورقة فيها ، حتى الصحيفة التى يحتفظ بها منذ خمسين سنة لا يرغب من أحد أن يزحزحها من مكانها إلا إذا كان ذلك بغرض تنظيف الحجرة شريطة أن يبقى الحال على ما هو عليه كما نظمه الحكيم وقام بترتيبه ، فإن « ناجا » ببراءة الصغار انتهزت فرصة غياب الحكيم وأمها خلال صحبتها له فى باريس وسويسرا ، وقامت بحملة نظافة فى البيت كله ، وطبعاً طالت الحملة حجرة الحكيم ، فقد رأت « ناجا » أن من واجبها أن تنظفها بما فيها كتاباً ، كتاباً ، تنفض عنها ما يكون قد علق بها من غبار ، وبذلت فى ذلك مجهوداً غير عادى .

اعتقدت أن « بابا الحكيم » عندما يعود سيشكرها ويكافئها ، ولكنه عندما عاد شعر فى حجرته بنوع من التغيير ، رغم أن « ناجا » حاولت أن تضع كل شيء فى مكانه بقدر استطاعتها ، ومع ذلك أحس الحكيم أن

الحجرة التى تركها ليست بالضبط هى التى عاد إليها ، فسأل « ناجا » « ما الذى حدث فى حجرتى هل قمت بتنظيفها ؟ ، فلما أجابته ، قال لها دون أن يغضب « ان ما اعتقدته صحيح » ، ونبه عليها : « نظفى كما تشائين لكن لا تقربى من كتبى .. نظفيها فقط من أعلاها » ، ذلك لأن الحكيم منظم جداً يعرف مكان كل شىء وضعه فى حجرته إلى درجة أنه باستطاعته أن يقوم ليلاً والنور مطفأ ، ويمد يده إلى مكان ورقة بعينها أو كتاب بعينه فلا يخطىء قصده ما دام لم يقم أحد بتغيير أى شىء وضعه فى موضعه ، فالنظام عنده شىء مقدس ، فى الطعام ، فى الشراب ، فى كل شىء ، ولذلك كان ما يضايقه من أبنائه سوء نظامهم ، وحينما كانت تجمعه بهم مائدة الطعام كان يلاحظ أنهم يمضغون بسرعة ويبلعون بسرعة ، فينصحهم لراحة المعدة أن يمضغوا الطعام على مهل ، حتى المياه عندما يرى صغاره يشربونها مرة واحدة وكأنما يقذفون بالماء فى جوفهم قذفاً ، كان ينبههم إلى ضرورة ارتشاف المياه بهدوء مثله ، ليتلذذوا بها ، وأن يشربوا فى المرة الواحدة على عدة مرات حتى لا تظل أنوفهم فى كوب المياه فترة طويلة تلوثه أنفاسهم ، فكان أبناء الحكيم كلهم من أبناء زوجته وأبنائه ، يضيقون بالنصائح والنظام ، ومع ذلك لم يكن أحد منهم يستفزه ، كانوا حريصين على إرضائه ، وهو أيضاً لم يكن يجبر أحداً على شىء ، هو ينصح ولكنه لا يفرض رأيه ، هو يقول ولكنه لا يفرض على أحد أن يسمع لما يقول ، وكانت نصائحه غير مباشرة فى أغلب الأحيان كان يقول لناجا باعتبارها كبيرة أخواتها « قولى لهم كذا ... » ، وإذا كان راضياً عن تصرف معين أو ملابس معينة يبدى إعجابه ، ولكنه مثلاً عندما يرى فستانا أحمر تلبسه ناجا ولا يعجبه يقول لها « هو انت أهلاوية » ، بما يعنى أن هذا اللون لا يليق أن تلبسه ، فهو لايحب فى الملابس الألوان المعقدة ، ويبتغى الألوان البسيطة لبناته خاصة « اللون السمنى » ومافى حكمه من الألوان

التى يسميها الألوان الباريسية، أو الألوان التى تطبع ملابس الباريسيات، والحكيم لا يهتم بالموضة ولا يعطى رأيه فيها ، ولكنه عندما يرى ملابس تعجبه وترتديها إحدى بناته فلا يخفى إعجابه ، وفى نفس الوقت يبدى عدم ارتياحه إذا رأى من تلك الملابس ما لا يناسب جسم أو سن إحداهن ، ويكون رأيه رفيقاً فى شكل نكته أو تعليق ساخر ليفهم منه سامعه ما يريد منه أن يفعله ، ولكنه لا يفرض اختياراً معيناً على كل من لهم صلة به .

فعل ذلك مع « ناجا » ، فلم يفرض عليها الطريق الذى تسلكه فى دراستها أو فى زواجها ، وكانت وجهة نظره فى اختيارات أبنائه لكلياتهم ، أن يكون أحدهم أو إحداهن فى قمة النجاح فى كلية يختارونها من أن يكونوا فى ذيل الناجحين فى كلية هو يختارها لهم أو يفرضها عليهم ، هذا شأن الحكيم ، التفوق فيما يختاره ، فقد اختار فرعا من الفن لم يسبقه فيه أحد ، اختار المسرح وحوله إلى فرع من الأدب المكتوب والمقروء ، مفضلاً أن يكون رائداً فى مجال على أن يكون عادياً فى المجال الذى اختاره له والده وهو أن يكون وكيل نيابة ، تمرد على اختيار والده ، رغم طاعته له ، وهو لا يريد أن يفرض على أبنائه كلية معينة أو نوع الدراسة فيها فيطيعونه ثم يتمردون عليه ، ولذلك ترك ناجا تختار « اللغة الإنجليزية للتخصص فيها » كطالبة جامعية ، وكان يشجعها بل ويعاونها فيما تدرسه من مواد باللغة العربية ومنها بعض مسرحياته المقرر دراستها عليهم ، « كبجماليون » ، تستوضحه عما غمض عليها فهمه من الأستاذ فى المحاضرة ، أو شيئاً لم تكن مقتنعة بوجهة نظره فيها ، تقوله للحكيم وتسأله عن رأيه فى شرح الدكتور لمسرحيته ، فيقول لها مثلا إنه قد أحسن فى هذه النقطة ، ولكن النقطة الأخرى قد فهمها خطأ ، ويوضح لها كمؤلف وجهة نظره ويطلب منها أن تسأل المحاضر أو تناقشه بما يساعده .

على فهم أكثر لمراد المؤلف من مسرحيته ، ذلك دون أن يعرف أى صلة لها بذلك المؤلف ، فقد كانت حريصة مثل كل أخواتها على ألا يظهروا أى علاقة لهم بالحكيم ، وكانت تلك أيضا رغبته ، فاحترموها جميعا لأنهم يعلمون أن الحكيم لن يساعد أحداً منهم على استغلال شهرته للحصول على امتيازات خاصة ، لأنه علمهم أن يعتمدوا على أنفسهم وأن ينجحوا فى حياتهم كل منهم بشخصيته واجتهاده ، ولذلك لم يعرف أستاذ « ناجا » فى الجامعة صلتها بالحكيم إلا بالصدفة عندما عرف ذلك من إحدى زميلاتها أثناء الامتحانات حيث كان العام الدراسى قد انتهى ولم تعد هناك أى ثمرة يمكن أن تجنيها « ناجا » بمعرفة أستاذها بصلة قرباها للحكيم .

ورغم أن الحكيم لم يكن يحب أن يفرض اختياره على أحد خاصة فى مسألة الزواج إلا أنه كان متردداً بل رافضاً للموافقة على كل من يتقدم لخطبة « ناجا » ، لم يكن مرحباً بكل من طلبوا يدها ، ولم تكن « ناجا » تهتم فهى لا زالت صغيرة ، ولم تكن الأم تعترض فليست هناك مشكلة ، فلا زال أمام الابنة الكبرى وقت حتى تتزوج ابن الحلال ، إلى أن تقدم الضابط الشاب « إبراهيم عزت » لخطبة « ناجا » ، وهذا كان آخر ما يفكر فيه الحكيم لأجمل بناته ، وإن كانت ابنة زوجته فهى ابنته أيضاً ، ولذلك كان يتطلع لأن تتزوج أفضل زيجة تتناسب مع جمالها وحبه لها ، وكانت رغبته أن تتزوج دبلوماسياً لا أن تتزوج ضابطاً مشغولاً أغلب وقته فى حياته العسكرية الصارمة التى تنعكس بطبيعة الحال على سلوكه وتصرفاته وحياته ، ولكن ما حيلة الحكيم . وقد أحب الضابط ، « ناجا » وأحبته هى ، ولم يعترض الحكيم .

الفصل الثانى

فى بيتنا خواجه !

- والموبيليا من باريس !
- لم أنتزع أمكم من أبيكم

أما نيرمين الإبنة الصغرى لزوجة الحكيم فكانت تتمتع بوضع خاص ، لأن عيناها تفتحت فى الدنيا على « بابا توفيق » الذى تربت عنده منذ كان عمرها سنتين ، ولذلك كان هو أول من وعت فى حياتها عليه ، فتناديه « بابا » ويداعبها باسم « بانورا » ويصحبها إلى « الحمام » ويضع يده خلف ظهره بالبالونات ذات اللون الأحمر التى تحبها ، ويقول لها : « يابنورا » ماذا تريدين أن يكون لون بالونتك ؟ فتقول له : حمرا ، فيؤكد عليها مداعبا : حمرا ولا زرقا . فتصر على اللون الأحمر ، فيقول مغنيا : يا ترونجه ، يا ترونجة هاتى لبنورا بالونة حمرا .

ثم يظهرها من خلف ظهره فتفرح الطفلة الصغيرة ، التى أفهمها أن « ترونجة » هذه هى عصفورة مختبئة وراء « السخان » فى « الحمام » ، وهى التى تحضر لها البالونات ، فتذهب بها « بنورا » وهى مبتهجة إلى أمها وهى تقول : بابا جاب لى بالونة حمرا » .

وعندما اكتشف الحكيم ، هوايتها للرسم ، شجعها ، لأن ذلك يبدو أنه ذكره بطفولته حينما أحب الرسم ، وراح يستعيد مع « نورا » هذه الهواية وحثها على شراء أقلام الفحم وأدوات الرسم ، بإعطائها النقود اللازمة لذلك ، مبديا إعجابه برسوماتها ، التى تطورت لتزين بها المفارش ، التى كان يأخذها الحكيم منها ليضعها فى حجرته ، ليزرع الثقة فى نفسها وعملها ، كما كان يكلفها ببعض الأعمال التى تستطيع القيام بها مؤكداً أنه ليس أحد غيرها يستطيع القيام بتلك الأعمال ، مما يجعلها تعمل على تنفيذ ما يطلبه منها بثقة وهى متأكدة من إنجازها مهما كانت العوائق والصعوبات ، فكان يطلب منها مثلاً أن تشترى نوعا معينا من الأحذية فيخبرها بمقاسه ويعطيها الثمن ، أو يطلب منها أن تشترى له قميصا

بمواصفات معينة، فتخرج لشرائه واثقة من إجابته إلى طلبه، وصدى كلماته يتردد فى نفسها : لا أحد غيرك يستطيع أن يشترى لى ما أريده .

ولذلك كانت تسعى بدأب لكى تحضر له ما يريد حتى لو دارت على كل محلات القاهرة ، لتثبت « لبابا توفيق » أن ثقته فى محلها .

وعندما يريد أن يعودها على ألا تعتمد على الآلة دائماً فى حياتها يقول لها مثلاً : من فضلك « يابنورا » لا أريد أن تضعى قميصى فى الغسالة .. وخذى بالك من ياقته فلا أحد غيرك يستطيع تنظيفها .

وتجتهد « نورا » لكى تكون عند حسن ظن « بابا توفيق » وهو فى نفس الوقت يشعرها كأنها فتحت عكا .

فلماذا يفعل مع « نورا » ذلك بالذات ؟ لقد شعر فيها ترددا وعدم ثقة بنفسها ، وهو يعانى من ذلك ، لذلك لا يريد لأحد غيره أن يقع فى نفس مشكلته ، فينشأ على ضعف الثقة بنفسه ، فقد عانى الحكيم من ذلك منذ طفولته .

حتى عندما اضطره زميله « حلمى بهجت بدوى » أيام الدراسة ، هو وزملاؤه أن يقف لهم كحارس مرمى ، فإنه لم تكن لديه الثقة بنفسه ، فراح يزحزح مجرى المرمى بعيداً دون أن يشعر اللاعبون ، حتى يبعد عن الكرة لكى لا تصل إلى مرماه .

وكبرت عدم الثقة بنفسه كلما كبر لأن والده لم يعلمه أن يثق بنفسه ، بل كان يناديه بعد أن صار عضوا بالنيابة « يا ولد يا توفيق » » .

وقد ورث والده هذه المعاملة عن والده هو أيضا ، والذى هو فى نفس الوقت جد توفيق ، فإذا قيل له : هل استشرت ابنك القاضى أو ابنك المأمور أجاب متعجبا : كيف أستشير العيال ؟

وقد انعكست تربية الحكيم بهذا الأسلوب ، عليه فنشأ مترددا قليل

الثقة بنفسه ، ولذلك عندما لاحظ أن ابنة زوجته الطفلة « نورا » منعزلة منطوية على نفسها ، حتى لو انقلب البيت واشتعلت فيه النار ، فإنها تظل هادئة ساكتة مادام لم يمسسها سوء ، فأراد الحكيم أن يخرجها من عزلتها ، ويعلمها الثقة بنفسها ، فتولى تنشئتها للاعتماد على نفسها بتدريبها على إنجاز ما يطلبه منها ، فيقول لها « انت شاطرة » لا أحد غيرك يستطيع أن يفعل ما أطلبه منك » . ولما كبرت « بنورا » كبر معها تدليل الحكيم لها لينادیها باسم « نورا » ، وقد كبرت على ثقتها بنفسها واعتمادها على ذاتها .

ولذلك عندما تزوجت « نورا » وعمرها « ١٦ سنة » واقتضت طبيعة ظروف وظيفة زوجها كدبلوماسى ، أن يعيشا معا فى « غانا » لمدة ثلاث سنوات ، لم تشعره « نورا » بقلق أو اضطراب نتيجة استقلالها بحياتها مبكراً ، وعندما صار زوجها سكرتيرا عاما مساعدا لمنظمة تضامن الشعوب الأفريقية الآسيوية ولم تعد تراه كثيرا لسفره المستمر ، بينما كان أولادها قد كبروا وأصبحوا فى المدارس وفى أوقات فراغهم يذهبون إلى النادى ، وجدت « نورا » نفسها فى فراغ شجعها على استكمال دراستها التى كانت قد قطعتها إكتفاء بالثانوية العامة عندما تزوجت ، ففكرت فى استثمار وقت فراغها لمواصلة تعليمها فالتحقت بالجامعة الأمريكية ، ولم تجد « نورا » من يشجعها على ذلك سوى الحكيم فى الوقت الذى كان فيه شقيقها إسماعيل لا يثق فى قدرتها على استكمال دراستها ، ولكن الثقة التى رباها عليها الحكيم منذ طفولتها جعلتها تنجح ، وتفضل العمل بعد التخرج على مصاحبة سيدات النوادى ، فقد كان لايزال عمرها ثلاثين سنة ، وزادت حاجتها للعمل عندما توفى زوجها بعد فترة قصيرة من تخرجها ، فشجعها الحكيم على أن تخرج للعمل شريطة ألا يكون عملها على حساب رعايتها واهتمامها بأولادها ، هو لم يناقشها فى هذا الموضوع ،

ولم يسألها لماذا تعملين ولماذا تخرجين ؟ لم يقل لها شيئاً من هذا ، ولكنها فهمت من طبيعته ما يمكن أن يحدثها فيه بشأن هذا الموضوع إذا أثير الكلام فيه ، فأشعرته بأنها لا تهمل فى أولادها ولا تجعل عملها يجور على حقوقهم عليها ، فأجابت على أسئلة الحكيم التى لم يسألها بإجابات لم تنطق بها ، من خلال رؤيته لأولادها ، وتقدمهم فى دراستهم واكتفائهم بذواتهم عن أمهم كما عودتهم أن يعتمدوا على أنفسهم ، فتربية الحكيم وما تعلمته من الثقة فى النفس ، انعكس على شخصيتها وأسلوب تربيتها لأولادها ، وعندما نزلت إلى معترك الحياة كامرأة عاملة قال لها الحكيم : والله يابنورا كبرت واشتغلت .

وكان يسألها كلما رآها عن عملها ، ويعاير بها أخواتها ، ويقول لهم إن « نورا » هى التى أفلحت لأنها تعتمد على نفسها .

وكان يطلب من إبنته زينب أن تقتدى بها ، فهى تعمل وتقضى حاجياتها وتقود سيارتها بنفسها ، فكانت « زينب » تتحمس لقيادة السيارة ، فيقول لها الحكيم « ممنوع » ! وعندما تسأله عن السبب يقول لها : لا أستطيع أن أجلس منتظرك ساعتين وأنا قلقان ؟ .فلماذا هذا التناقض بين تشجيع الحكيم لإبنة زوجته ، ومنعه لإبنته ؟ .

إنه برغم المعاملة المتساوية بل وأحيانا المتميزة من الحكيم لإبنتى زوجته بالمقارنة لإبنته ، فإنه لم يكن يريد أن يفرض اختياراته وآرائه عليهما خاصة بعدما كبرتا وصارتا مسئولتين من زوجيهما ، إلا إذا أشركوه معهم وطلبوا رأيه ، وكذلك كان الحال بالنسبة لإبنته وهى متزوجة ، فكان يبدى رأيه إذا طلب منه دون أن يحاول أن يفرضه ، وقد حدث ذلك عندما احتكم زوجها إليه فى رغبته أن تظل زينب فى بيتها ولا تكمل دراساتها العليا لحاجة أولادها إليها ، فأيده فى وجهة نظره ، ولو كان قد رغب زوجها

استكمالها لدراساتها ، وخروجها للعمل ، ما اعترض الحكيم ، ولكن وقد حدث الانفصال ، واستقرت زينب وأولادها فى بيت أبيها ، فقد أصبحت منذ ذلك الحين مسئولة منه ، كما أصبح هو نفسه فى هذه السن المتقدمة ، مسئولا منها ، ولكنها رغبة منها فى أن يكف والدها عن حديثه لها عن العمل ، كانت كطبعها المعتاد فى العناد الذى ورثته عن جدتها أم الحكيم نفسه ، كانت تبدى رغبتها فى الخروج إلى العمل لتضع والدها بين رغبته الحقيقية فى بقائها وتظاهره بحثها على العمل ، ليتراجع ويقول لها « ومن يرعى الأولاد ؟ ، دون أن يكمل أيضاً « ومن يرعى الحكيم » ؟ فتبتسم « زينب » أو « سوزى » كما يناديها ، وتصمت موافقة والدها على وجهة نظره ، دون أن تحرجه وتقول « وإذن فلماذا الحديث عن عملى مادمت لا ترغبه » ؟ ! وإذا كانت زينب قد بقيت بغير عمل كرغبتها ورغبة الحكيم ، إلا أنها ومعها ناجا ونورا قد اتفقن جميعا على عدم قدرتهن على الإقلاع عن التدخين ، رغم شرح الحكيم لهن عن مضاره واستشهاده بقصاصات الصحف التى تدعم وجهة نظره ، ولكن « نورا » لم تكن تجرؤ على إشعال « سيجارة » أمام الحكيم ، إلا فى أواخر حياته بعد أن أصبحت جدة مثله ، فقد كانت حريصة على العلاقة الخاصة بينها وبين الحكيم والتى جعلته يخصها هى وحدها دون أخواتها بفستان غالى الثمن ، اشتراه لها خصيصاً من باريس ، وقت أن كانت هناك ترافقه زوجته ، صحيح أنهما أحضرا هدايا « لناجا » و « سوزى » و « إسماعيل » ، ولكن « نورا » وكانت لاتزال حديثة الزواج ، كانت لها هدية مميزة عن هدايا أخواتها ، هدية اختارها الحكيم بنفسه وأشرف على شرائها من محلات باريس القاخرة ، دون أن يتردد أو يرى ارتفاعا فى ثمن « الفستان » الباريسى الذي اختاره بنفسه ، وهى المرة الوحيدة التى يشترى فيها شيئاً غالياً ثميناًيهتم أن يهديه لعزيز عليه سوى « نورا » التى قال لها وهو يعطيها

[illegible] - ١٩٩١

فستانها الذى لم يكن لأختيها مثله : يابنورا هذا الفستان أحضرته لك مخصوص .

ولكن رغم هذا السخاء فإن الحكيم كان يمسك يده فى أشياء بسيطة جداً لا تستحق الإمساك والتقتير ، كأن تكون « نورا » عائدة وأجرة التاكسى ناقصة خمسين قرشا ، فتستمهل السائق لكى تحضرها له ، فتطلبها من الحكيم ، فيقول لها : من أين .. وهل أبقت لى أمك شيئاً ؟ .

بل إن الحكيم وعنده أكبر أجزاخانة يمكن أن توجد فى بيت ، للمواد الطبية ، حتى إذا أصيب أحد أفراد الأسرة ولو بسعال مفتعل كالذى يصطنعه حفيديه ، فإنه يجبر أهل البيت جميعاً على تناول الأدوية اللازمة كنوع من الوقاية ، ولكن إذا طلبت « نورا » قرصا من الأسبرين لتسكن به صداعا شعرت به ، تفاجأ بالحكيم يقول لها : أمك كان عندها صداع بالأمس وأخذت كل الإسبرين » !

فإلى هذه الدرجة يكون الحكيم فى إمساكه وتقتيره كبخلاء الجاحظ ، وفى أحيان أخرى يكون فى سخائه ككرم حاتم الطائى ، كما فعل عندما أنجبت « نورا » وليدتها « رانده » فأعطاها خمسون جنيها ، ولكن « نورا » لم تكن تتوقع أن يأخذ الحكيم طفلها « حازم » فى « لفافته » ليداعبه ويضعه على سريره ، ليفعلها الصغير ، ويصيب مكان نوم الحكيم ، بإصابات مباشرة ، فلا يتأفف ولا يغضب أو يضجر ، بل يقف متفرجا وهو يتأمل الطفل فى حنان ويقول لأمه مستعيدا اسمها الذى كان يدللها به وهى صغيرة :

والله يا « بنورا » كبرت وبقيت أم » . وقد أصبح هذا الطفل « حازم » فيما بعد معيداً بكلية الهندسة ، وكانت هوايته كهواية أمه ، وهواية الحكيم فى طفولته ، يحب الرسم ، ولم ينس أن يرسم « بورتريه » لهذا الجد الروحى العطوف ، ويحتفظ به فى حجرته .

وعندما أصبح أطفال نورا فى المدارس كان الحكيم يجمعهم حوله ، خاصة فى الاسكندرية حيث الإجازة الصيفية التى كانت عادت ما تجمع الحكيم بأفراد الأسرة « الحكيمية » ، فيسأل الأطفال عن أحوالهم فى المدرسة ، وعاملين إيه فى دراستكم ، وأنت ماذا تريد أن تكون عندما تكبر ؟ .. الخ ، فقد كان الحكيم قريبا من أبناء وبنات زوجته كلما التقى بهم ، أو جمعته معهم الظروف والمناسبات .

* * *

وكما كان الحكيم مع زوج ناجا ودوداً ، كان كذلك مع زوج « نورا » الدبلوماسى وإن كانت طبيعة عمله التى تجعله دائماً بعيداً ومسافراً ، لم تتح له فرصة الاحتكاك الحميم بينه وبين الحكيم ، خاصة وأن القدر لم يمهله ليعيش كثيراً .

وحتى عندما أقدمت « نورا » على زواجها الثانى من رجل ذى جنسية إنجليزية ، لم يعترض الحكيم كما هو مفترض ، أو يناقش « نورا » أو يلومها ويؤنبها أو يقول لها إنها أدخلت على العائلة أجنبيا « خواجة » ، بل إن الحكيم رحب به واعتبره واحداً من العائلة يشركه فى جلساته وحواراته العائلية .

فلم يكن الحكيم « حما » ولا « زوج أم » فقد رعا ناجا ونورا طفلتين ، وعلمهما تعليما عاليا ، وتحمل نفقات زواجهما ، والأثاث الذى كانت تأتى به أمهما فى بعض الأحيان من باريس ، وماذا يمكن أن يفعل أب لبناته أكثر مما فعل الحكيم ؟

ومع ذلك كان وهو على « سرير » مرضه الأخير ، يراجع نفسه ويحاسبها كأشد ما يكون الحساب فى وجود ، ناجا ، ونورا ، وابنته زينب ، ويبرر لهن بعض تصرفاته معهن ، فيقول :

آه لو فعلت كذا لكان كذا .. ولكنكم لو كنتم استشرتمونى ساعتها لكانت النتيجة أفضل .. لقد كنت أريد أن أفعل الكثير لكم .. لكن القدر كان على عناد معى .. هل تعرفون لماذا لم أفعل ما أريده لكم .. لأن الله لم يشأ .

وهكذا كان الحكيم يجلس إلى بناته فى المستشفى ، وكأنه يعتذر لهن عما يشعر أنه أخطأ فيه فى حقهن ، كعدم اصطحابه لهن فى باريس عندما كان « مندوباً » لليونسكو ، مبرراً ذلك بخشيته من الإقامة هناك تلك الفترة ، حتى لا يعرضهن لتيار من العادات الغربية ، ثم كيف يكون الحال حين سيصلن إلى سن الزواج ، هل كان سيسمح لهن بالزواج من فرنسيين ، وهو الذى قضى زهرة شبابه هناك دون أن يعود بفرنسية ، فكيف سيتصرف إذا وجد نفسه مضطرا والأسرة مقيمة معه هناك ، وأحبت إحداهن شابا فرنسيا ؟ ، من أجل هذا (يقول الحكيم لهن) .

– لم آخذكم معى إلى باريس » ثم يتجه إلى ناجا ونورا وكأنه فى لحظات اعتراف أمامهما ، مبررا أى خطأ فى حقهما ، أو أى شىء يكون قد صدر عنه وأغضب إحداهما ، أو يكون قد طلب شيئا من إحداهما وأخذته كأوامر دون مناقشتها ، فإنه فى كل تصرفاته وسلوكه تجاههما ، كان يتصرف بدافع الحب لهن وإذا كان قد قصر فى حقهما فليعطوه العذر ، ثم راح الحكيم يتكلم فيما لا يخطر لناجا ونورا على بال ، ولكنه لم يدع شيئاً يمكن أن يقذفه الشيطان أو وسوسة النفس الأمارة بالسوء ، فى صدر كل منهما تجاهه ، فقال لهما مبرراً زواجه من أمهما ، إنه لم ينتزعها من والدهن ، لأنها كانت مطلقة ، ولم يتقدم للزواج منها إلا بعد أن تأكد أنها لن تعود إلى مطلقها ، إلى هذه الدرجة كانت معاملة الحكيم لإبنتى زوجته ، وإلى هذا الحد كان يحاسب نفسه من أجلهن وهو فى أيامه الأخيرة فى الطريق إلى الله .